

توجيهات الإمام ابن باديس للدعاة في خلال تفسيره "مجالس التذكير"

— خطباء المساجد أنموذجا —

Reform efforts in raising social elites with Ibn Badis through his interpretation mosque preachers

هشام شوقي

جامعة الأمير عبد القادر —قسنطينة/الجزائر، كلية أصول الدين، مخبر الدراسات القرآنية والحديثية

h.chougui84@gmail.com

تاريخ النشر: 2022/12/14

تاريخ القبول: 2022/05/10

تاريخ الاستلام: 2021/03/14

ملخص:

يسعى هذا البحث لتسليط الضوء على جانب من جوانب اعتناء الإمام ابن باديس بأحد النخب المجتمعية التي كانت تريد أن تأخذ بيد الأمة الجزائرية إلى بر الأمان؛ وهم خطباء المساجد، حيث إنه لما رأى نقائص في خطبهم حالت دون أداء وظيفتها وهي التأثير في الناس، توجه لهم بكلمة توجيهية مجملها خمس نصائح متنوعة وذلك أثناء تفسيره للقرآن، وقد تضمنت نصيحته توجيهات للخطباء في كيفية مخاطبة الناس للتأثير فيهم والسلوك بهم إلى بر الأمان، باللغة السلسة والتركيز على مواضيع الساعة وما تحتاجه الأمة وغيرها من التوجيهات .

فقدت بجمع هذه النصائح وشرحها لتكون نبراسا يستنير به خطباء المنابر، وهذا كله يدخل في الجهود الإصلاحية التي كان يقوم بها ابن باديس لتنوير المجتمع الجزائري.

كلمات دالة: ابن باديس، خطباء المساجد، توجيهات، جهود إصلاحية .

Abstract:

This Search Aims At Highlighting One Aspect Of The Fact That Ibnbadis Took Care Of The The Mosque Preachers .

He Noticed That Their Speeches Didn't Reach Their Objective Which Is To Influence People Addressed Them And Gave Them Various Guiding Advice

It Was An Oral Lesson Attended By People Of Different Strata Of Society. His Advice Contained Instructions To The Preachers On How To Talk To People In Order To Influence Them And Take Them To Safety.

I Gathered These Advice And Explained Them 'All This Is Reflected In The Reform Efforts Done By Ibnbadis To Get The Nation Out Of The Distress To

Key Words: The Keywords: Ibn Badis, Mosque, Preachersraisingelites,Reform Efforts.

مقدمة:

يعتبر الإمام ابن باديس المصلح الأول والناصح الأمين للمجتمع الجزائري إبان فترة الاستعمار الفرنسي في الجزائر ، ولذلك فقد كان يسعى لتربية جيل يحمل مشعل الأمة الجزائرية ويترقى بها إلى مراتب الكمال حتى تنال الحرية، ولهذا فقد أثر عنه مقولته المشهورة "شغلنا بتأليف الرجال عن تأليف الكتب" .

كما يعتبر تفسيره "محاسن التذكير" من التفاسير المعاصرة القيمة التي كانت كالمصباح الذي يضيء للناس طريقهم في ذلك الوقت، وهذا نظرا لمنهج صاحبه فيه والأسلوب الشفاهي الذي كان يستعمله؛ حيث حاول أن يجعل من القرآن كتابا حيا يخاطب ضمائر الناس وقلوبهم ليخرجهم من الظلمات إلى النور.

ومن تمام حكمة الشيخ ونظرته الثاقبة أنه كان يركز في جهده الإصلاحية على النخب في مختلف المجالات وذلك لما لهم من تأثير على غيرهم من طبقات المجتمع، فكان يوجه هؤلاء النخب ويرشدهم للطريق التي إذا ما سلكوها وفقوا في مسعاهم وأصابوا هدفهم فترتقي بذلك أمتهم .

ومن مظاهر اهتمامه بالنخب التي لها تأثير كبير على المجتمع؛ اهتمامه بخطباء المساجد الذين يوجهون الناس ويرشدونهم لما فيه صلاح آخرتهم ودنياهم، فكان ابن باديس ينصحهم

ويركز عليهم ليتمكنوا من أداء دورهم المجتمعي والرسالة المنوطة بهم، وذلك إنه لما رأى تقصيرا من خطباء المساجد الذين انتشرت فيهم بعض النقائص التي حالت دون تبليغهم لرسالتهم وتحقيق مقصودها، وجه نصيحة لهم وحذّره من هذه الأخطاء والنقائص التي تحول دون تحقيق قصدهم، وذلك لما فسر قول الله تعالى ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بَتِيبَةٍ أَحْسَنَ﴾ (النحل: 125)، وهذا ما يدل على أهمية هذا الموضوع.

فما هي تلك النصائح والتوجيهات التي وجهها ابن باديس لهذه النخبة الفعالة في المجتمع؟ وكيف نستفيد منها في الجانب الإصلاحي المعاصر؟

هذا ما سأحاول الإجابة عنه في هذا البحث الذي قسمته إلى مطلبين هما:

المطلب الأول: ترجمة للإمام ابن باديس وتعريف بتفسيره "مجالس التذكير".

المطلب الثاني: نصائح ابن باديس وتوجيهاته لخطباء المساجد.

وتفصيلها كما يلي:

المطلب الأول: ترجمة للإمام ابن باديس وتعريف بتفسيره "مجالس التذكير".

الفرع الأول: ترجمة للإمام ابن باديس:

أولا: مولده ونسبه:

ولد عبد الحميد بن باديس بمدينة قسنطينة، سنة 1307هـ، الموافق لليلة الجمعة 4 ديسمبر عام 1889م، والده: هو محمد المصطفى بن مكّي بن باديس، وأمه: زهيرة بنت علي ابن جلّول.

وأُسرة ابن باديس مشهورة في شمال إفريقيا نبغ فيها عظماء الرجال وكانت تجمع بين العلم والجاه، حيث تنحدر هذه الأسرة من العائلة الصنهاجية، التي منها: المعز لدين الله بن باديس، الذي قاوم البدعة ودحرها، ونصر السنة وأظهرها، فأزال مذهب الشيعة الباطنية، وأعلن مذهب أهل السنة والجماعة مذهباً للدولة، وانفصل عن الدولة الفاطمية بمصر.

(باديس ا.، 1968، صفحة 16)، و (الجزار، 1999، صفحة 16)

ثانيا: نشأته:

نشأ الإمام بن باديس في أحضان تلك الأسرة العريقة في العلم والجاه، وكان والده حريصاً على تربيته تربية إسلامية، فلم يدخله المدارس الفرنسية مثل بقية أبناء العائلات المشهورة،

بل أرسله إلى الشيخ المقرئ محمد بن المداسي، فحفظ عليه القرآن وتجويده، وعمره لم يتجاوز الثالثة عشر سنة، ثم وجهه إلى الشيخ حمدان الونيسي، فتلقى منه العلوم ومكارم الأخلاق، يقول ابن باديس في بيان فضل أسرته ومشايخه عليه: "إن الفضل يرجع أولاً إلى والدي الذي ربّاني تربية صالحة ووجهني وجهة صالحة، ورضي لي العلم طريقة اتبعها ومشرباً أردّه وقاتي وأعاشني وبراني كالسهم وراشني... ثم لمشائخي الذي علموني العلم وخطوا لي مناهج العمل في الحياة ولم يبخسوا استعدادي حقه". (باديس ا، 1968، صفحة 35). و (سالم، 1999، صفحة 35).

ثالثاً: رحلاته في طلب العلم:

بعد أن استوعب الشيخ بن باديس غالب العلوم التي وجدها تلقى في بلده، عزم على مواصلة الطلب والتحصيل، وبتشجيع من والده، ارتحل إلى تونس، متتبعا ينابيع العلم والمعرفة، فقصده جامع الزيتونة وتلقى العلم على المبرزين من علمائها، أمثال الشيخ: محمد النخلي، والشيخ: محمد الطاهر بن عاشور، وغيرهم طيلة أربع سنوات إلى أن أجازوه للتدريس، فمكث بعد تخرجه سنة أخرى للتدريس فيها، ثم عاد سنة 1912م إلى الجزائر لنشر علمه وتنوير شعبه فجلس يدرس في الجامع الكبير بقسنطينة ثم تحول بعد ذلك الجامع الأخضر . وفي موسم الحج لعام 1913م قصد مكة لأداء فريضة الحج، فالتقى هناك بعدة علماء كشيخه حمدان الونيسي والبشير الإبراهيمي وغيرهم، كما ألقى عدة دروس في المسجد النبوي، وأثناء عودته إلى الجزائر طاف بعدة بلدان عربية، فزار سوريا ومصر، التي التقى فيها بالشيخ محمد بخيت المطيعي، والشيخ أبي الفضل الجيزاوي وغيرهم . (حميداتو، 1418، الصفحات 47-49). و (العراي، 1409، الصفحات 31-35).

رابعاً: شيوخه:

تتلمذ ابن باديس على شيوخ كثير من أبرزهم:

- 1- الشيخ محمد بن المداسي، تلقى عليه القرآن .
- 2- الشيخ حمدان الونيسي، أخذ عنه اللغة العربية وغيرها من العلوم، يقول عنه ابن باديس: "وإني لأذكر ... وصية أوصاني بها، وعهداً عهد به إليّ ... فقد أوصاني وشدّد عليّ أن لا أقرب الوظيفة ولا أرضاها ما حييت، ولا أتخذ علمي مطية لها، كما كان يفعله أمثالي في ذلك الوقت". (ابن باديس، 1968، ج1/ص: 78) .

3- الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، أخذ عنه الأدب وعلوم العربية .
 4- الشيخ محمد النخلي القيرواني، قال عنه ابن باديس: "وذلك أنني كنت متبرماً بأساليب المفسرين وإدخالهم لتأويلاتهم الجدلية واصطلاحاتهم المذهبية في كلام الله... فذاكرت يوماً الشيخ النخلي فيما أجده في نفسي من التبرم والقلق فقال لي: اجعل ذهنك مصفاة لهذه الأساليب المعقدة وهذه الأقوال المختلفة وهذه الآراء المضطربة يسقط الساقط ويبقى الصحيح وتستريح، فو الله لقد فتح بهذه الكلمة القليلة عن ذهني آفاقاً واسعة لا عهد له بها " . (باديس ا.، 1968، صفحة 42/2) .

5- الشيخ البشير صفر .

خامساً: وفاته:

انتقل للرفيق الأعلى في مساء الثلاثاء 8 ربيع الأول 1359هـ-16 أبريل 1940م، فتحرّكت قسنطينة بأكملها لتشيع جنازته، ودفن في روضة أسرته بحي الشهداء قرب مقبرة قسنطينة قيل في وفاته إنه مات مسموماً، وقيل مات إثر سرطان الأمعاء الذي أصيب به - فرحمه الله رحمة واسعة - . (باديس ا.، 1968، صفحة 95/1) .

سادساً: آثاره العلمية:

آثار ابن باديس كثيرة، منها ما يلي:

- 1- تفسيره المسمى (في مجالس التذكير) ، طبع ونشر سنة 1948م .
- 2- مجالس التذكير من حديث البشير النذير: وقد طبعته وزارة الشؤون الدينية بالجزائر، سنة 1983م.
- 3- العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية: وهي عبارة عن دروس التي كان يملئها على تلاميذه، في أصول العقائد الإسلامية وأدلتها من القرآن والسنة النبوية .
- 4- رجال السلف ونسأؤه: وهي مجموعة من المقالات ترجم فيها ابن باديس لبعض الصحابة رضوان الله عليهم، نشرت في مجلة (الشهاب) .
- 5- حقق كتاب: العواصم من القواصم: للإمام ابن العربي، طبع سنة 1928م، في جزئين . وقد قامت وزارة الشؤون الدينية في الجزائر بجمع كثير مما حوته صحافة الجمعية من نشاطات الإمام عبد الحميد بن باديس في المجالات المختلفة وطبعته تحت عنوان: "آثار الإمام عبد الحميد بن باديس". (شهرة، 2009، الصفحات 110-111) .

الفرع الثاني: تعريف بتفسير الإمام ابن باديس "في مجالس التذكير" :

أولاً: اسمه:

اسم هذا التفسير الجليل هو: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير .

ثانياً: تعريف عام بهذا التفسير:

هذا التفسير هو عبارة عن دروس كان يلقيها الشيخ ابن باديس، في مسجد الجامع الأخضر بقسنطينة، ولم يكتبه الشيخ بخط يده بل كان يلقيه ارتجالاً لأنه رأى ذلك أكثر تأثيراً في النفوس، لذلك ضاع أكثره لأن تلاميذه لم يدونوه ولم يبق منه إلا تفسيره لبعض الآيات من سور متفرقات، بالإضافة إلى تفسير المعوذتين الذي كتبه الشيخ بنفسه كتصدير لمجلة الشهاب، وفي ذلك يقول الشيخ البشير الإبراهيمي: "لم يكتب الأخ الصديق أماليه في التفسير ولم يكتب تلامذته الكثيرون شيئاً منها، وضاع على الأمة كنز علم لا يقوم بمال، ولا يعوض بحال، ومات فمات علم التفسير وماتت طريقة ابن باديس في التفسير، ولكن الله تعالى أبى إلا أن يذيع فضله وعلمه، فألهمه كتابة مجالس معدودة من تلك الدروس وكان ينشرها فواتح لأعداد مجلة الشهاب ويسمونها مجالس التذكير" . (الإبراهيمي، 1997، صفحة 253).

ثالثاً: العوامل التي شجعت ابن باديس على تفسير القرآن:

لقد اصطفى الله تعالى ابن باديس ليكون مفسر الجزائر الأول لأسباب عديدة أهمها:

1- تكوينه الإسلامي: حيث حفظ القرآن الكريم في سن مبكرة، فأحبه وترعرع بين سوره وآياته وتشبعت روحه به، وساعده في ذلك شيخاه: محمد المداسي وحمدان الونيسي، فحفظاه القرآن وعلماه آدابه وهديه فتعلق به منذ صغره . (العراي، 1409، صفحة 84)

2- رحلته إلى تونس: فبعد أن أتم دراسته في جامع الزيتونة تفرغ لطلب العلم عند الشيخين: محمد النخلي والطاهر بن عاشور، فوجد فيهما ضالته التي كان يبحث عنها، لأنه لم يكن مقتنعاً ولا راضياً عما كان يتلقاه في دراسته النظامية لما كان يجول في خاطره دائماً من أسئلة وإشكالات حول اختلاف المفسرين وغيرها من المسائل العلمية فلم يكن يجد من يجلس إليه ليناقشه فيها، فلما لقي الشيخ النخلي فتح له باب التفسير بكلمة نصحه بها، وفي ذلك يقول ابن باديس: "إذا لم يكن لي في حياتي العلمية من لاف للقرآن إلا تلك الكلمة التي

سمعتها من الشيخ النخلي، وقد فعلت فعلها في نفسي وأوصلتني في فهمي إلى الدرجة التي تحمدها اليوم " . (باديس ا.، 1968، صفحة 143/2) ..

3- تأثره بدعوة الشيخ: محمد عبده، من خلال مجلة "المنار"، في الرجوع إلى الكتاب والسنة، وإحيائهما لبث نهضة عصرية مستفاعة منهما . (العراي، 1409، صفحة 85) .
رابعا: مدة إلقائه وحفل اختتامه:

كان الجامع الأخضر بمدينة قسنطينة بمثابة جامعة معاصرة، مدرستها الإمام عبد الحميد بن باديس، حيث كان يلقي أكثر من عشرة دروس في اليوم، من بعد صلاة الصبح إلى ما بعد صلاة العشاء، كل يوم ماعدا الخميس والجمعة، واختار ابن باديس أن يكون درس التفسير بعد صلاة العشاء، ليجلسه أكبر عدد ممكن من المستمعين لأن غالبهم يكون متفرغا في هذا الوقت، فكان يحضر درسه هذا جم غفيرة يعجب بهم المسجد، وكان يستغرق حوالي ساعة في الدرس الواحد، واستمر على ذلك مدة خمس وعشرين سنة إلى أن اختتم فيها القرآن كله . هذا الحدث الذي هز الجزائر كلها فتوافد على مدينة قسنطينة العلماء وطلاب العلم وعوام الناس من كل أنحاء الوطن وأقيم لذلك احتفال كبير دام مدة ثلاثة أيام . (العراي، 1409، صفحة 89).

ولندع الشيخ البشير الإبراهيمي يصف لنا ذلك فيقول: " أتم الله نعمته على القطر الجزائري بختتم الأستاذ عبد الحميد بن باديس لتفسير الكتاب الكريم درسا على الطريقة السلفية، وكان إكماله إياه على هذه الطريقة في خمس وعشرين سنة متواليات مفخرة مدخرة لهذا القطر وبشرى عامة لدعاة الإصلاح الديني في العالم الإسلامي كله، تمسح عن نفوسهم الأسى والحزن لما عاق إمام المصلحين محمد عبده عن إتمامه درسا، ولما عاق حواريه الإمام رشيد رضا عن إتمامه كتابة .

إن إكمال تفسير القرآن على تلك الطريقة في مدة تساوي- بعد حذف الفترات- المدة التي كمل الله نزوله فيها، يعد في نظر المتوسمين إيذانا من الله برجوع دولة القرآن إلى الوجود، وتمكين سلطانه في الأرض، وطلوع شمس من جديد، وظهور المعجزة المحمدية كرة أخرى في هذا الكون، ثم كان الاحتفال بختمه بمدينة قسنطينة في الثالث عشر من ربيع الثاني عام 1357 دليلاً على انسياق الأمة الجزائرية المسلمة إلى القرآن واستجابتها لداعي القرآن

واجتماع قلوبها على القرآن وشعورها بلزوم الرجوع إلى هداية القرآن". (الإبراهيمي، 1997، صفحة 318/1).

خامسا: أهداف ابن باديس من تفسيره:

سعى الإمام ابن باديس من وراء تفسيره إلى تحقيق أهداف معينة، أملت عليها ظروف المجتمع الذي يخاطبه والأزمة التي يمر بها بلده، وقد تمثلت هذه الأهداف فيما يلي: (العراي، 1409، الصفحات 99-105).

1- العمل على إشعار المجتمع بأن القرآن هو المخرج الذي يوصل الأمة إلى بر الأمان، وأن الرجوع إليه وترك هجره هو الدواء لعلاج الأمراض الواقعة في الأمة، يقول ابن باديس: "فإذا أردت أن ترقى في درجات الكمال، وتظفر بأنواع الإنعام وتزكي نفسك الزكاء التام، فعليك بهدي هذا الفرقان، فهو بساط القدس، ومعراج الكمال، ومائدة الأكرام". (باديس، 1995، صفحة 154).

2- الطريق إلى فهم القرآن لا يكون إلا بفهمه كما فهمه السلف، وتطبيقه كتطبيقهم له، وفي ذلك يقول: "فهوم أئمة السلف الصالح أصدق الفهوم لحقائق الإسلام ونصوص الكتاب والسنة". (باديس ا، 1968، صفحة 132/3).

3- معالجة واقع الناس وتربية الشعب الجزائري على العمل بالقرآن، وهذا لتظهر نماذج من الرجال كما ظهرت في الصدر الأول من الإسلام، "وإن القرآن الذي كَوَّن رجال السلف لا يكثر عليه أن يكون رجالاً في الخلف لو أحسن فهمه وتدبره وحملت الأنفس على منهاجه". (باديس ا، 1968، صفحة 142/2).

المطلب الثاني: نصائح ابن باديس وتوجيهاته لخطباء المساجد .

كان ابن باديس يوجه النصائح والتوجيهات للنخب المجتمعية القائمة على إصلاح الأمة، ومن ذلك توجيهاته لخطباء المساجد الذي نصحهم في تفسيره حينما فسر قول الله تعالى : [اَدْعِ السَّبِيلَ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بآثِيهَا حَسَنًا تَرْبُكُهُمْ أَعْلَمُ بِمَنْضَعِ سَبِيلِهِمْ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ] النحل: ١٢٥، حيث قال: "تحذير: أكثر الخطباء في الجمععات اليوم في قطرنا يخطبون الناس بخطب معقدة، مسجعة طويلة، من مخلفات الماضي، لا يراعى فيها شيء من أحوال الحاضر وأمراض السامعين، تلقى بترنم وتلحين، أو غمغمة وتمطيط، ثم كثيراً ما تختم بالأحاديث المنكرات، أو الموضوعات.

هذه حالة بدعية في شعيرة من أعظم الشعائر الإسلامية، سدّ بها أهلها باباً عظيماً من الخير فتحه الإسلام، وعطلوا بها الوعظ والإرشاد وهو ركن عظيم من أركان الإسلام. فحذار أيها المؤمن من أن تكون مثلهم إذا وقفت خطيباً في الناس. وحذار من أن تترك طريقة القرآن والمواعظ النبوية إلى ما أحدثه المحدثون . ورحم الله أبا الحسن - كرم الله وجهه - فقد قال: "الفقيه كل الفقيه، من لم يقنط الناس من رحمة الله، ولم يؤمنهم من مكروه، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى ما سواه" . (باديس، 1995، صفحة 324).

ومن هذا النص يتبين لنا أن ابن باديس وجه هذه النخبة بتحذيرها من خمسة أخطاء شاعت في خطبهم، وتفصيلها كالآتي هي كالآتي:

الفرع الأول: تحذيره من استعمال الأسلوب المعقّد والكلمات الغريبة في الخطب :

يعتبر تعقيد أسلوب الخطبة واستعمال الألفاظ الغريبة والمعقّدة من أهم ما يجب أن يجتنبه خطيب الجمعة، وذلك لأن هذا الأسلوب مما يفوت المقصد من الخطبة وهو تفهيم الناس وتبصيرهم بأمور دينهم وإيجاد الحلول الشرعية لانشغالاتهم، ولهذا أنكر الإمام ابن باديس هذا الأسلوب على بعض الخطباء في زمانه ونهاهم عنه.

وقد كان منطلقه في هذا الإنكار السنة النبوية، حيث وردت عدة أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم تنتهي عن التعرّ في الكلام والتكلف فيه، ومن ذلك :

1- حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن الله عز وجل يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة بلسانها) . (داود، 2009، صفحة 4/459)، قال ابن الأثير في بيان معنى الحديث : " هو الذي يتشدق في الكلام ، ويفخم به لسانه ، ويلفه كما تلف البقرة الكلاً بلسانها لفاً " . (السعادات، 1979، صفحة 70/2).

2- حديث جابر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « إن من أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً ، وإن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون » . (الترمذي، 1998، صفحة 3/483). و«الثرثار»: هو كثير الكلام تكلفاً. و«المتشدق»: المتناول على الناس بكلامه، ويتكلم بملء فيه تفاصحاً وتعظيماً لكلامه، و«المتفيهقه»: أصله من الفهق وهو الامتلاء، وهو

الذي يملأ فمه بالكلام ويتوسّع فيه، ويغرب به تكبراً وارتفاعاً، وإظهاراً للفضيلة على غيره. (حمد، 2002 ، صفحة 412).

3- وقد وصفت عائشة رضي الله عنها صفة كلام النبي فقالت: « كان كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم كلاماً فصلاً يفهمه كل من يسمعه ». (داود، 2009، صفحة 208/7) ، وقالت : « كان يحدثنا حديثاً لو عدّه العاد لأحصاه ». (البخاري، 1987، صفحة 1307/3).

وقد ذكر أبو حامد الغزالي الآفة السادسة من آفات اللسان فأدرج تحتها : التقعر في الكلام بالتشديق ، وتكلف السجع والفصاحة ، والتصنع فيه بالتشبيبات والمقدمات ، وما جرى به عادة المتفاسحين المدعين للخطابة، ثم قال: وكل ذلك من التصنع المذموم ومن التكلف الممقوت . ثم قال أيضاً : بل ينبغي أن يقتصر في كل شيء على مقصوده ومقصود الكلام التفهيم للغرض، وما وراء ذلك تصنع مذموم". (الغزالي، 1989، صفحة 120/3) .

فقد دلت هذه النصوص بمجموعها على أن التقعر في الخطب مخالف لما ينبغي أن تكون عليه خطبة الجمعة من استعمال الألفاظ الواضحة البسيطة التي توصل المعنى لجميع المستمعين مهما كانت مستوياتهم العلمية والمعرفية، لذلك فينبغي لكل خطيب أن يعمل بنصيحة الإمام ابن باديس فإنها نصيحة من خبير .

الفرع الثاني: تحذيره من المبالغة في سجع الخطب:

التحذير الثاني الذي حذّر منه الإمام ابن باديس خطباء الجمعة هو كثرة السجع في الخطب، والسجع هو: "تناسب آخر الكلمات لفظاً ، وأصله الاستواء ". (حجر، 1379، صفحة 218/10).

فقد أنكر -رحمه الله- على الخطباء كثرة استعمال الكلام المسجوع الذي لا تترتب عليه فائدة، هذه الظاهرة التي شاعت في زمن ابن باديس وشاعت في زماننا أكثر ، وقد ثبت عن عائشة رضي الله عنها أنها نعتابن أبي السائب قاص أهل المدينة عن السجع، فقالت: " اجتنب السجع في الدعاء ؛ فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا لا يفعلون ذلك ". (حنبل، 1999، صفحة 217/6).

يقول د:سعود الشريم" ثم إن السجع في الخطب يعدُّ من الأمور التي لم يتخل عنها الخطباء في القديم ولا في الحديث ، وهو بلا شك جمال في الخطبة إذا أحسن الخطيب استعماله ،

غير أن كثيراً من الخطباء قد بالغوا فيه مبالغة ظاهرة حتى صار عيباً في الخطبة ، بحيث لا تكاد تسمع أربع كلمات قد تزيد أو تنقص إلا و تراها مسجوعة سجعاً متكلفاً ، مما يسبب الملل لدى المستمع ، أو يقلل من قيمة الدلالات والألفاظ بسبب الترادف المتكرر في السجع ؛ لأن الخطيب قد يعبر عن شيء يكفي فيه كلمتان -فحسب- بكلمات كثيرة مترادفة لأجل السجع المراد . وهذا في الحقيقة سجع متكلف ، وتكرار وحشو يجعله إلى الذم أقرب ، وذلك كمن يقول مثلاً : توالى الأحداث عليكم ، وجاءت مسرعة إليكم ، وحطت رحالها لديكم . فلو نظرنا إلى قوله "توالى" و"جاءت" و"حطت" لوجدنا أنها كلمات مترادفة كلها تدل على معنى واحد .

وأما السجع الذي كان يستعمله العرب فقد كانت كل سجعة فيه تختلف عن التي تليها من حيث المعنى ، وإنما التوافق يكون في قافيتها الأخيرة ، فمن ذلك ما ذكره الجاحظ عن عمر بن ذر حين قال : "الله المستعان على السنة تصف ، وقلوب تعرف ، وأعمال تخلف" ، أو كسؤال بعض الأمراء حينما سأل رسولاً قدم من جهة السند : كيف رأيتم البلاد ؟ فقال : "ماؤها وشل ، ولصها بطل ، وتمرها دقل ، إن كثر الجند بها جاعوا ، وإن قلوا بها ضاعوا". (سعود، د ت، الصفحات 175-176).

فينبغي لكل خطيب أن يحسن استعمال السجع ليزين به خطبته فتزيد قيمتها ولكن من غير مبالغة ولا غلو يخرج الكلام عن مقصده فيصير مجرد تكرار من غير فائدة، وربما لو اطلع الإمام ابن باديس على خطباء زماننا وما ابتدعوه من تكلف السجع في خطبهم لألف في ذلك كتاباً مستقلاً ينهى فيه الخطباء عن السجع، إذ أن الإكثار من سجع الخطبة عند كثير من خطباء زماننا صار من أهم عناصر خطبة الجمعة .

يقول الشيخ محمد رشيد رضا واصفاً بعض الخطب المعاصرة بما نصه : " وقد صارت الخطبة في أكثر البلاد الإسلامية رسوماً تقليدية مؤلفة من أسجاع متكلفة كسجع الكهان ". (رضا، 22 من شوال 1315 هـ = من مارس 1898، صفحة 28/15). وقال أيضاً في موضع آخر موصياً الخطيب : " وإياه والسجع المتكلف ، والمحسنات المرذولة التي كثيراً ما تخفي الأغراض وتعمي المعاني ، وتأخذ بصاحبها القول وقصده ". (رضا، 22 من شوال 1315 هـ = من مارس 1898، صفحة 341/29).

الفرع الثالث: تحذيره من الإطالة والمبالغة في زمن إلقاء الخطبة:

الأمر الثالث الذي نهي عنه الإمام ابن باديس خطباء الجمعة في زمانه هو: الإطالة في مدة الخطبة وكثرة الكلام فيها، وذلك أن المقصود من خطبة الجمعة هو إفادة السامعين وتذكيرهم ، ولاشك أن الإطالة في الكلام تجعل بعض الكلام ينسي بعضا ، وتجعل السامع يمل منه فلا يستفيد شيئا من حضوره .

وقد وردت أحاديث كثيرة تنهى الخطيب عن التطويل في خطبته، ومن ذلك:

1- حديث واصل بن حيان قال: « قال أبو وائل : خطبنا عمار فأوجز وأبلغ فلما نزل قلنا يا أبا اليقظان لقد أبلغت وأوجزت فلو كنت تنفست، فقال : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئنة من فقهه، فأطيلوا الصلاة وأقصروا الخطبة وإن من البيان سحرا » . (الحجاج، د ت، صفحة 407/5) .

2- حديث جابر بن سمرة السوائي « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يطيل الموعظة يوم الجمعة إنما هن كلمات يسيرات » . (داود، 2009، صفحة 488/3).

وكما أنه ورد في السنة بيان قصر الخطبة في يوم الجمعة، فقد ورد ذلك أيضا في كتب الفقه، فقد جاء في الشرح الكبير في سياق بيان سنن الخطبة فقال: (وتقصيرها، والثانية أقصر من الأولى). (عرفة، د ت، صفحة 382/1). وقال النووي: "ويستحب تقصير الخطبة للحديث المذكور وحتى لا يملوها ، قال أصحابنا : ويكون قصرها معتدلا ، ولا يبالغ بحيث يحققها " . (النووي، د ت، الصفحات 529/4-582).

وانطلاقا من هذه النصوص فإنه ينبغي على الخطيب أن تكون خطبته قصيرة مستوفية للموضوع خالية من التكرار والحشو الذي يمكن الاستغناء عنه، ولكننا في نفس الوقت لا نستطيع أن نحكم على نجاح الخطبة بمجرد كونها قصيرة، أو نحكم عليها بالفشل لكونها طويلة، وذلك أن قصر الخطبة وطولها أمر تحدده عوامل كثيرة ، ومن العوامل التي تتحكم في وقت الخطبة طولاً وقصراً :

- طبيعة الموضوع الذي يتناوله الخطيب ، وأهميته بالنسبة للمخاطبين ، وكونه مما يحتاج إلى البسط والإيضاح ، أو يكفي فيه الاختصار والإيجاز .

- سعة المسجد أو ضيقه ، وكثرة المصلين أو قلتهم ، وكذلك ما يطرأ على الناس من أحوال عامة تؤدي إلى اضطراب نفوسهم ، واشتغال أذهانهم وعقولهم ، وما يستجد من أحداث لها آثار على عقيدة المسلمين ، أو أخلاقهم أو أمنهم واستقرارهم .

فالخطبة وقت النوازل والكوارث والأحداث الجسام تختلف عنها في الأحوال المعتادة ، والخطبة في مسجد السوق تختلف عنها في مسجد الحي؛ إذ ينبغي أن يعطي لهؤلاء من الوقت ما يناسبهم . ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم رغب في قصر الخطبة وطول الصلاة يجعله ذلك علامة على فقه الخطيب . (جبر، 1422، الصفحات 8-9).

الفرع الرابع: إنكاره على الخطباء عدم استغلالهم خطبة الجمعة في معالجة واقع الناس:

الإنكار الرابع الذي أنكره ابن باديس على خطباء زمانه هو عدم معيشتهم للواقع الذي كان يحيط بهم، حيث لم يكن الخطباء يستغلون خطبهم في معالجة المشاكل والأمراض التي كان يعاني منها المواطنون الجزائريون في ذلك الزمان، وإنما كان الخطباء يكتفون بإلقاء خطب من مخلفات الماضي كما وصفها ابن باديس.

وهذه النقطة من أهم النقاط التي يجب أن ينتبه لها خطيب الجمعة، إذ ينبغي أن يكون أهم عنصر يتحكم في اختيار عنوان الخطبة هو النظر إلى حاجة الناس وما يعانون منه من مشكلات أو انحرافات فينبط الخطيب من خطبته مشخفا للداء واصفا للدواء من كتاب الله وسنة نبيه وأقوال السلف، وهنا يبرز تمكن الخطيب في اختيار موضوع الخطبة وعنوانها، فالخطيب رجل من المجتمع لا يمكن أن ينفصل عنه بحال من الأحوال فهو يسمع ما يقوله الناس ويرى ما يفعلونه فإذا رأى شيئا استجلب نظره فإنه يجعل منه موضوعا لخطبة الجمعة، وقد نبه الإمام ابن القيم رحمه الله على هذه المسألة، فإنه لما وصف حال النبي صلى الله عليه وسلم في خطبه قال : وكان يأمرهم بمقتضى الحال في خطبته ، فإذا رأى منهم ذا فاقة وحاجة أمرهم بالصدقة وحضهم عليها " . (الجوزية، 1994، صفحة 428/1) .

ومما يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخطب بما يقتضيه الحال حديث أبي سعيد الخدري قال : « جاء رجل يوم الجمعة والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب بهيئة بدة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أصليت ؟ قال : لا . قال : صل ركعتين ، وحث الناس على الصدقة ، فألقوا ثياباً فأعطاه منها ثوبين ، فلما كانت الجمعة الثانية جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب ، فحث الناس على الصدقة ، قال : فألقي أحد ثوبيه ، فقال

رسول الله صلى الله عليه وسلم : جاء هذا يوم الجمعة بهيئة بذة ، فأمرت الناس بالصدقة فألقوا ثياباً فأمرت له منها بثوبين، ثم جاء الآن فأمرت الناس بالصدقة، فألقى أحدهما، فانتهره، وقال: خذ ثوبك». (النسائي، 1991، صفحة 106/3).

فهذا الحديث يدل بوضوح على مراعاة النبي صلى الله عليه وسلم لمقتضى الحال في خطبة الجمعة ، وعلى هذا كان فعل السلف من بعده، لذلك فإنه ليس من الحكمة ما يفعله بعض الخطباء ، من الجمود على مناسبات محددة طول العام بأن يضع لكل شهر خطبته أو خطبه المعدة مسبقاً ، أو يعتمد على كتاب في خطب العام لا يكاد يخرج عنه ، وكأنه يخاطب الناس من خارج عصره بلغة غير لغتهم ، وبهم غير همومهم ، وهذا يفقد الخطبة أثرها ، ويفصل الخطيب عن جمهوره ومخاطبيه. (جبر، 1422، صفحة 58).

قال الشيخ محمد رشيد رضا - واصفاً مراعاة الخطيب لمقتضى الحال - : " بينا لك أن خير الخطب ما كان مصدره نفس الخطيب وشعوره وإحساسه ، لا نفس غيره ممن مضت بهم القرون، وكانوا في عالم غير عالمنا ، ولهم أحوال تخالف حالنا ، فمن أراد العظة البالغة ، والقولة النافذة ، فليزم ببصره إلى المنكرات الشائعة ، والحوادث الحاضرة ، خصوصاً ما كان منها قريب العهد ، لا تزال ذكراه قائمة في صدور الناس ، وحديثه دائراً على ألسنتهم ، أو ذائعاً في صحفهم ، أو تراه مشاهداً بينهم ، ثم يتخير من هذه الحوادث ما يجعله محور خطبته ومدار عظته ، ثم ينظر ما ورد من الآيات والأحاديث الصحيحة في الموضوع الذي تخيره ويجيد فهمها ، ويفكر في الأضرار المالية والصحية والخلقية والاجتماعية التي قد تنشأ عن هذه الجريمة التي جعلها موضع عظته ، ويخصي هذه الأضرار في نفسه أو بقلمه ، هذا إذا أرد التنفير من رذيلة ، أو الإقلاع عن جريمة ذاع بين الناس أمرها ، أو طفع عليهم شرها ، فإن أراد الترغيب في فضيلة ، أو الحث على عمل خيري ، أو مشروع حيوي ، فليفكر في مزاياه تفكيراً واسعاً مراعيّاً الصالح العام دون المآرب الخاصة ". (رضا، 22 من شوال 1315 هـ = من مارس 1898، صفحة 340/29).

الفرع الخامس: إنكاره على خطباء الجمعة استشهادهم بالأحاديث المنكرة والموضوعة في خطبهم:

ومما أنكره الإمام ابن باديس على خطباء زمانه استشهاد كثير من الخطباء بالأحاديث المنكرة والموضوعة التي لم تثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا أخطر العيوب التي

تتصف بها الخطبة لأن ما سبق من العيوب ينقص من قيمة الخطبة أو تأثيرها، ولكن هذا العيب الخامس يجعل الخطيب آثماً لأنه كذب على النبي صلى الله عليه وسلم ونسب إليه ما لم يقله، وقد قال صلى الله عليه وسلم « من كذب على فليتبوأ مقعده من النار » . (البخاري، 1987، ج1/434) . يقول الشيخ محمد رشيد رضا عن كثرة ترديد الأحاديث الضعيفة والموضوعة من قبل بعض الخطباء: "إننا كثيراً ما نسمع من خطباء الجمعة الأحاديث الضعيفة والموضوعة والمخرقة ، حتى صار يضيق صدري من دخول المسجد لصلاة الجمعة الأولى أو في أثنائها ، فمن سمع الخطيب يعزو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قولاً يعلم أنه موضوع يحار في أمره؛ لأنه إذا سكت على المنكر يكون آثماً ، وإذا أنكر على الخطيب جهراً يخاف الفتنة على العامة، والواجب على مدير الأوقاف منع الخطباء من الخطابة بهذا الدواوين المشتملة على هذه الأحاديث ، أو تخرج أحاديثها إذا كانت الخطب نفسها خالية من المنكرات والخرافات والأباطيل ، وما أكثر ذلك فيها " . (رضا، 22 من شوال 1315 هـ = من مارس 1898، صفحة 16/186).

وانطلاقاً من هذه النصوص فإنه ينبغي لخطيب الجمعة أن لا يذكر حديثاً في منبره إلا بعد أن يتأكد من صحة نسبته إلى النبي صلى الله عليه وسلم لأن المصلين ينقلون عنه كل ما يذكره في خطبته من أحاديث، خاصة إذا كان يتمتع بالسمعة الطيبة عندهم، وفي الأحاديث الصحيحة غنية عن الضعيف والموضوع، وقد نصح النبي صلى الله عليه وسلم أمته -ومنهم الخطباء -بتحري الصدق في الحديث فقال:« لا يزال الرجل يصدق ، ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً .. » . (الحجاج، د ت، صفحة 4/204).

خاتمة:

وفي آخر هذا البحث أخلص إلى النتائج والتوصيات الآتية:

- 1- ضرورة اعتناء المصلحين بالنخب المجتمعية لما لهم من دور فعال في توجيه الرأي العام .
- 2- كان ابن باديس يعيش هموم أمته فما إن يرى نقصا في نخبها أو عوامها إلا وجه لهم النصح وأرشدهم، كما فعل مع خطباء زمانه .
- 3- أهمية التوجيهات التي قدمها ابن باديس للخطباء، والتي من شأنها أن تثمر الثمار المرجوة من الخطبة .
- 4- تلخصت نصيحة ابن باديس للخطب في خمس نصائح هي:
 - النهي عن تعقيد الخطبة .
 - عدم الإكثار من السجع فيها .
 - تجنب التطويل الممل .
 - الاهتمام بمعالجة واقع الناس والمشاكل التي يعيشها المجتمع .
 - ترك الاستدلال بالأحاديث الموضوعة والباطلة في الخطبة .
- 5- هذه النصائح ينبغي أن يعمل بها جميع الخطباء في كل عصر من العصور ومصر من الأمصار، فعلى كل خطيب قبل أن يعلو المنبر أن يتعلم آداب الخطبة وشروط صحتها وعوامل نجاحها، ثم يجتنب كل ما من شأنه أن ينقص من قيمة خطبته أو ينقص من تأثيرها في قلوب المصلين .

قائمة المراجع:

- 1- ابن الأثير مجد الدين أبو السعادات. (1979). النهاية في غريب الحديث والأثر. بيروت: المكتبة العلمية.
- ابن باديس. (1968). آثار ابن باديس. الجزائر: دار ومكتبة الشركة الجزائرية.
- ابن حجر. (1379). فتح الباري شرح صحيح البخاري. بيروت: دار المعرفة.
- أبو داود. (2009). سنن أبي داود. بيروت: دار الكتاب العربي.
- أبو عبد الرحمن النسائي. (1991). سنن النسائي الكبرى. بيروت: دار الكتب العلمية.
- أحمد محمود الجزار. (1999). الإمام المجدد ابن باديس والتصوف. مصر: دار المعارف.
- الإبراهيمي. (1997). ثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي. الجزائر: دار الغرب الإسلامي.
- البخاري. (1987). صحيح البخاري. بيروت: دار ابن كثير.

- الترمذي. (1998). الجامع الصحيح . بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- الدسوقي محمد بن عرفة. (د ت). حاشية الدسوقي على الشرح الكبير. بيروت: دار الفكر .
- الشريم سعود. (د ت). الشامل في فقه الخطيب والخطبة. <http://www.saaaid.net>.
- الشيباني أحمد بن حنبل. (1999). مسند الإمام أحمد. مؤسسة الرسالة.
- العراقي. (1409). الإمام عبد الحميد ابن باديس ومنهجه في الدعوة من خلال آثاره في التفسير والحديث. تأليف العراقي. السعودية.
- الغزالي. (1989). إحياء علوم الدين. بيروت: دار المعرفة .
- المبارك فيصل ابن حمد. (2002). تطريز رياض الصالحين. الرياض: دار العاصمة للنشر والتوزيع.
- باديس. (1995). في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير. بيروت- لبنان: دار الكتب العلمية.
- رشيد رضا. (22 من شوال 1315 هـ = من مارس 1898). مجلة المنار. مجلة المنار.
- شرف الدين النووي. (د ت). المجموع شرح المذهب. بيروت: دار الفكر.
- شفري شهرة. (2009). الخطاب الدعوي عن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين(دراسة مقارنة بين عبد الحميد بن باديس ومحمد البشير الإبراهيمي). باتنة: كلية: العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية.
- شمس الدين ابن قيم الجوزية. (1994). زاد المعاد في هدي خير العباد. الكويت: مكتبة المنار الإسلامية.
- عبد الحميد بن باديس ،. (1968). آثار ابن باديس،. الجزائر: دار ومكتبة الشركة الجزائرية.
- محمد يحيى الدين سالم. (1999). ابن باديس فارس الإصلاح والتنوير. القاهرة: دار الشروق.
- مهر أحمد جبر. (1422). خطبة الجمعة ودورها في تربية الأمة. السعودية: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد.
- مسلم بن الحجاج. (د ت). صحيح مسلم. بيروت: دار الجيل و دار الأفاق الجديدة.
- مصطفى حميداتو. (1418). بد الحميد بن باديس وجهوده التربوية ضمن سلسلة "كتاب الأمة" . قطر: مركز البحوث والدراسات.